الذى عطـــل الدين

للأســـتاذ عبد المنعم خلاف

ما رأيت شيئاً أضر الحياة وأضر الدين وحال دون شيوعه فى الناس مثل ما عطله الإيغال فيه والاستغراق فى معانيه حتى يصير بعيداً عن متناول عقول أكثر الناس ومتناول جهدهم المحدود وإحساسهم بالحياة ... ! وينبغى لقواد الاجتماع ألا يخطوا خطوة عامة فى رحاب الفكر الاجتماعى إلا وهم مقدرون أن جمهور الإنسانية يستطيع أن يخطوها وراءهم.

وقد كان نتيجة ذلك الإيغال أن حياة أكثر الناس انفصلت عن حياة الدين واتجهت إلى مجرى المادية الصماء — وهو المجرى الظاهرى وحده — من غير أن يصحبها الروح السامى الذى يليق بعظمة تفرعاتها المادية وتشقيقاتها.

ولو أن الدين نُظر إليه على أنه موقف لازم من مواقف الحياة كالأكل والنوم والرياضة والعلم ألخ ... وسائر حياة المجتمع، وفُهِم على أنه « ركن مادى » فيها لا بد أن تقوم عليه كما تقوم على غيره من دعاماتها كالقانون وحفظ الأمن مثلا، ولم تلتصق به نزعات التصوف والانطلاق الشعرى المغرقين، وتصوير موقف الإنسان فيه موقف الفناء والإنكار للنزعات المادية التى تستلزمها الحياة بالجسد، والخروج من الدنيا بالسهر والجوع والزهد واستمراء الآلام قبل الخروج منها بالموت ... إذاً لسارت الحياة الإنسانية فى تناسق بين جانبيها الروحى والمادى.

ولو علمنا أن الحياة صادقة أصدق من تلك النزعات الشاذة التى تجلت فى أفراد من المتشائمين، من كل من طلق الدنيا ألماً منها أو زهداً فى لذاتها، لتغير الموقف العام، فان الحياة الإنسانية فى مجراها العام أخذت الإنسانية كلها، ونقلتها إلى رحاب الكرامات والتسلط والتسخير عن طريق العلوم الموضوعية ومكارم الأخلاق العملية لا الاستغراقات الذاتية الضيقة.

ولا يغرّنّنا من شذوذ كل أولئك الصوفيين المغرقين ما تركوه من كلام شعرى مزوّق جميل فى طيوف وأشباح وأصداء لوجداناتهم المحرومة الموهمة التى تركت طرق الحياة الواضحة، وأرادت أن تدرك الله الأعلى بعقولها المحدودة، فكانت النتيجة الحتمية لذلك المطلب هى بلبلة الخاطر وخفاء البيان واضطراب السير ...

إن الحياة المادية العلمية الظاهرة هى الحكم لصالح حياة الجماعة، وهى الأفق الأول الذى أراد الله العظيم أن تتجلى فيه أسرارنا ونتائج خلقتنا، ونتائج جهادنا فيها نتائج دائمة ثابتة، يراها أطفالنا وجهالنا كما يراها علماؤنا وفلاسفتنا.

وأنا مؤمن بالإنسانية ذات المنطق الواقعى المستمد من الطبيعة، ناشدٌ كمالها عن طريق تكميل سيطرتها على الطبيعة وإدراكها للنفس إدراكا علمياً وتحكمها فى العمل تحكماً صالحاً.

ومن الذى سار وراء الشذاذ من الصوفية والمتشائمين وأخذ أخذهم فى الحياة؟ إنهم أقل عدد، ومن صالح الأرض أن يكون

المروءات حتى لا ننكر الأمر النُّكْر، أم خارت العزائم، وانخلعت القلوب حتى لا تجرؤ على الجرم الظالم؟ وهل نامت الحكومة فى الشام نومة أهل الكهف حتى ما تدرى بالدم يسيل فى شارع من أكبر شوارع دمشق؟

لقد سكت الجميع، حتى أن أنسباء القتيل قد ناموا عن دمه، وقعدوا عن الثأر له، ولم يتقدم أحد منهم شاكياً ولا مدعياً لأن القاتل كما قالوا، عازم على ذبحهم كلهم إن قدر عليهم، وماضيه حافل بأمثال هذه الجرائم.

فما سرّ هذا السكوت؟

لقد علمت السرّ بعدُ يا سادة ...

ذلك أن المسكين الشهيد كان خروفاً من خرفان الضحية، وأن القاتل كان جزّار الحارة، وأن الناس شاركوه فى جرمه. فأكلوا لحم الذبيح مشوياً ومقلياً ومطهياً، وأكلت معهم ونسيت من طيب اللحم هذا المشهد ...

هذه هى سنة الحياة، يموت المسكين لنستمتع نحن بأكلة طيبة. فكلوا منه أنتم أيضاً هنيئاً، واشربوا عليه مريئاً، واشتغلوا بالأكل عن مطالبتى بالقصة، وكل عام وأنتم بخير!

على الطنطاوى

ذلك كذلك ، إذ لو طاوعهم الناس لعطلت الأعمال فى الأرض ، ولم تتحقق الأعمال البارعة التى للانسان فى المادة وأسرار الحياة

* * *

غير أن الإنسانية إن كانت طبيعية بسيرها هكذا فقد أساءت بإهمال جانب الروح فيها باعتباره دعامة أساسية فى الحياة ذلك الإهمال الشنيع .

وربما يكون ذلك الأمر محتملا فى العصور السالفة ، عصور القصور والطفولة ، ولكن الآن يجب أن تدرك أنها بلغت دوراً لا يصح أن تسكت فيه على إهمال الجانب الروحى فى حياتها باعتبار أنه « ركن حيوى » ودعامة نظامية لحياتها المادية ذاتها ، والحمد لله قد تحول كثير من أحلام الروحيين القدماء إلى أخلاق عملية عامة .

والتصوف بمعناه العملى شىء سام عظيم فى رياضة الخلق وتطبيع الأعصاب على السمو والخير وإيقاظ الضمير ، ولكنه بمعناه الشعرى الذى نراه فى شعر بعض القوم ليس أخلاقاً ، وإنما هو أحلام وتأملات مستغرقة حادّة للخلاص من الجسد لرؤية الحقيقة العظمى والخروج من نطاق الأرض لرؤية ماوراءها ، وهؤلاء قد لا يهتمون بالأعمال والأخلاق كالحلاج وغيره ؛ فواجب أن ننظر إليهم لا كرجال دين يسنون طرقا ليسير الناس عليها ، وإنما كشعراء استهوتهم المعانى الدينية فأسرفوا فيها ، واستغرقوا وانطلق وجدانهم فيها كما استغرق أبو نواس فى الخمر وبشار فى الملذات الحسية ...

وقد ينظر إلى معانيهم على أنها انطلاقات فى « فن الدين » أو موسيقى فى جوّه ليست ذات محصول ... وقد ينظر إليهم رجل الدين العالم العملى على أنهم صناع أحلام استهوتهم إلى غير الطريق الجمى . وكل فتح عظيم لهم وتستطيع الإنسانية أن تنتفع به ينتهى إلى « صواب الأحكام » عن طريق البيان ؛ لأنهم أطالوا التأمل وأدمنوا تقليب النظر فى وجوه الأشياء المختلفة . وهذا لا يتيسر لكثير غيرهم .

ولم يأت وصف لله تعالى على لسان أى مخلوق بما يخرج عن نطاق عمله تعالى وصفاته الممثلة فى الطبيعة التى تدرك بالقوى الواعية وبالحواس .

نعم قد تشرق عليهم لمعات من الأذواق الغريبة عن الحياة ومن المشاهد الغيبية ، ولكن لا يستطيعون إظهارها ؛ لأنها يضيق عنها نطاق النطق كما يقرر الغزالى .

وإنى ما قرأت بيان صوفى إلا وجدته خيالا شعرياً جميلا ، إن كان صاحبه قديراً ، ورديئاً إن كان صاحبه قاصراً كليل الذهن ، وكثيراً ما أظفر بمثله من بيان أهل الدنيا السائرين على ظاهرها .

* * *

وتظهر قيمة القرآن العظيم حين أراه يأخذ المجتمع كله بمنطق وسط صالح للجماعات ، وحين أراه كتاب العدل والاتزان والاعتراف بالحياة المادية والحياة الروحية كأساس واحد لازم للحياة الانسانية .

والعمل هو روحه ، لا الأمانى الشعرية ، ولا الأغانى الدينية ولا التماس « حسن التعليل » ولا الأماديح التى تتملق وتتهرب بها صاحبها أو يتشفع بها ويعتذر فى مسئولية إهمال الأعمال ، كتلك المعاذير التى يتخذها الناس مع رؤسائهم الدنيويين .

والثواب والجنة الحسية والحسنى والرضا والرحمة والاحترام والخير لذى الخير هى من أدواته كذلك فى الدعوة ومجازاة الفضائل والطبائع الكريمة لأنها منطق الغرائز الصالحة والأخلاق المثلى . وكل أخلاق القرآن هى أخلاق أبناء الحياة بجزءيها العاجل والآجل ، الصالحين لعمارة الأولى ونموها والعاملين لحيازة الأخرى والرفعة والرفاهة الخالصة فيها .

وكل عقائد القرآن واضحة مأخوذة من منطق الاتفصال بين الإنسان والله تعالى ؛ فلا حلول ولا وحدة ولا اتحاد ، وبين الله والطبيعة ، ومن موقف الخلافة فى الأرض خلافة واسعة والتدخل فى شئونها جميعاً ، لا التقليل من شأنها والهرب من مجابهة فتنتها كدار امتحان وكفاح وابتلاء . موقف الاعتراف بقيمة الجسد الإنسانى وسمو الروح الإنسانى ووجوب الجمع بينهما لصلاح الحياة والفكر .

فَلْنَدِنْ لله بالحياة ، ولنتعبد بها هى ذاتها ، ولنتخذ منطقنا من سننها التى لا تتبدل وحقائقها التى لا تلتوى ، لأنها منطق الله ربنا وربها ، وما عرفنا الله إلا منها . فكيف نهملها ؟ وكيف نجهلها أو نجهل عليها ؟ فيها قوامها ، ومنها دينها ! .